المحاضرة رقم 01

إن الإنسان كائن مدني اجتماعي بطبعه لا يستطيع أن يعيش وحيداً منفرداً بعيداً عن أقرانه من البشر الآخرين لهذا يميل إلى التواصل والتفاعل مع غيره في علاقة حية متبادلة تحقق رغبات وأهدافاً مشتركة. لذا كانت الجماعات البشرية منذ القدم، سواء في صورتها البدائية التي تتمثل في القبائل والعشائر والأقوام، أو في صورتها المتطورة التالية المتمثلة في الشعوب والأمم، أو في صورتها المنظمة السياسية التي تتمثل في الدول، كانت هذه الجماعات تسعى دوماً للاتصال فيما بينها من حين لآخر، وكان هذا الاتصال يحدث كثيرا بين الشعوب المتجاورة سواء لتبادل المنتجات أو لتسوية المنازعات التي قد تنشأ بين أفرادها أو لتنظيم الانتفاع بالمرافق المشتركة كالمراعي ومناطق الصيد ومصادر المياه وكذا لتعيين حدود المناطق التي يخص بها كل شعب، أو لإقامة التحالف ضد أطراف ثالثة أو إعلان الحرب أو إبرام الصلح وتبادل الأسرى.

وعرفت الحضارات القديمة مثل هذه العلاقات مع غيرها من دول العالم التي كانت قائمة آنذاك، مثل الحضارة الهندية وكذا الحضارة الإغريقية (اليونانية القديمة) والحضارة الرومانية. وتميزت العلاقات آنذاك بالتأقيت، حيث كانت تنتهي مهمة المبعوث الدبلوماسي بانتهاء مهمته إلى أرسل من اجلها، ولذلك سميت بدبلوماسية المناسبات.

أما بالنسبة للعرب قبل الإسلام، فقد عرفوا الدبلوماسية وقد ساعد موقع شبه الجزيرة العربية كملتقي لطرق القوافل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب على قيام علاقات تجارية وروابط بين العرب وجيرانهم مما تطلب الاتصال بين قبائل الجزيرة العربية، وقد عرفوا وظيفة "سفارة". وعند بزوغ فجر الإسلام ازداد اهتمام العرب بالدبلوماسية التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي كانت قائمة على مبدأ السلام كقاعدة أساسية وعلى مبدأ الحرب كقاعدة استثنائية أي الدفاع ضد أي عدوان. ولم تقتصر الدبلوماسية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين على إرسال الرسل والدعوة بالطرق السلمية فقط بل شملت أيضاً التفاوض في حالة الحرب من أجل عقد اتفاقيات الصلح وحل المنازعات سلمياً وتبادل الأسرى. ولم تقف السفارة في الإسلام عند هذا الحد بل تطورت في العهود اللاحقة، في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين والعباسيين.

ولم يتم ظهور التمثيل الدبلوماسي الدائم إلا في العصور الحديثة، وكان من الأسباب التي حالت دون انتشار نظام التمثيل الدائم عدم الثقة التي كان ينظر إليها بلاط الملوك والأمراء الحاكمين إلى السفراء. ولم يتغير الوضع إلا بعد مؤتمر وتسفا ليا لسنة 1648. فقد أصبح تبادل البعثات الدائمة منذ ذلك التاريخ القاعدة المطبقة في اوروبا ومنها امتد إلى بقية دول العالم.

فالبعثات الدبلوماسية تمثل المصالح السياسية للدولة، فهي تتمتع بالصفة التمثيلية وتعبر عن سيادة الدولة، إلا أن البعثات القنصلية وان كانت لا تتمتع بالصفة التمثيلية ومع ذلك فإنها تقوم بدور كبير على الصعيد الدولي، نظرا للمهام المتعددة التي تقوم بها لمصلحة الدولة ذاتها أو لمصلحة رعاياها الذين يحملون جنسيتها.

واليوم بلغت العلاقات الدولية مرحلة متقدمة ومتشابكة جدا نتيجة لتداخل مصالح الدول وتعارض مواقفها، لذلك كانت هذه العلاقات محل اهتمام كبير من قبل القانون الدولي إذ أضحى من الواجب إرساء قواعدها على أسس واضحة المعالم تكون نتيجة لتوافق دولي للتقليل من حدوث

المنازعات وإحلال الأمن والسلام الدوليين، وهاته العلاقات تدار من طرف هيئات تابعة للدولة والمتمثلة في البعثات الدبلوماسية والقنصلية. حيث تقتصر هذه الدراسة على بيان اشخاص العلاقات الدبلوماسية والقنصلية وتحديد الحصانات والامتيازات التي يتمتعون بها.

هناك امثلة عديدة وصور مختلفة للعلاقات الدبلوماسية بين شعوب العالم القديم منذ العهود الأولى من التاريخ وظلت في فترة من الزمن ذات صفة عارضة غير مستمرة، لكنها كانت تخضع مع ذلك لقواعد عرفية معينة. وهو ما يقودنا الى تتبع مراحلها وتطورها منذ بداية تأريخها وصولا الى أهم مراحل هذا التطور عبر العناصر التالية.

المبحث الأول: التطور التاريخي للدبلوماسية

سوف نعرض المراحل التي مرت بها الدبلوماسية ابتداء من العصور القديمة وحتى العصور الحديثة.

المطلب الاول: التطور التاريخي للدبلوماسية في العصور القديمة

ان الدبلوماسية قديمة قدم الشعوب ذاتها، فمنذ بداية الإنسانية، ظهرت مجموعة من المصالح المتبادلة والمعقدة التي افترضت قيام اتصال وتعاون بين الأفراد والمجتمعات بواسطة الرسل الذين يقومون بمهام نقل الرسائل. وقد عرفت نظام المبعوثين الدبلوماسيين في حضارات مختلفة منها الفرعونية والصينية والهندية والبابلية.

أولا: الدبلوماسية في الحضارة الإغريقية

إن الدبلوماسية لم تبدأ بالازدهار إلا في العصر الإغريقي، ويرجع ذلك الى أن المجتمع الإغريقي كان مكونا من مدن متعددة مستقلة عن بعضها استقلالا تاماً. وكانت المدن اليونانية تتبادل الممثلين الدبلوماسيين وتعقد فيما بينها الاتفاقيات وتشترك في المؤتمرات. ولكن علاقات اليونانيين بغيرهم من الشعوب الأجنبية التي كانت تصفهم بالبرابرة، وقد اتسمت بالقسوة والوحشية.

وعلى الرغم من ذلك فإن العصر الإغريقي أرسى قواعد في المجال الدبلوماسي تتميز بالخصائص التالية:

أ- اعتبار تبادل البعثات الدبلوماسية بين المدن الإغريقية من الحقوق السياسية لكل مدينة.
ب- عدم اقتصار التبادل الدبلوماسي على البعثات المرسلة إلى رؤساء المدن بل تشمل المجالس النيابية.
ت- عدم خضوع المبعوث الدبلوماسي للقانون أو القضاء الداخلي في المدينة الموفد إليها.
ث- تحريم قبول أية هدية تقدم إلى الدبلوماسي من المدينة الوفد إليها. (خوفا من التآمر ضد مدينته).
ج- تطبيق مبدأ حرمة الدبلوماسي أي مبدأ عدم التعرض لشخصه.
ح- الاعتراف بحق منح اللجوء السياسي.

ثانياً: الدبلوماسية في الحضارة الرومانية

على عكس الحضارة الإغريقية، عرفت الدبلوماسية نكسة وركود خلال العصر الروماني خاصة في فترة صعود الإمبراطورية التي كانت تحكم العالم ولا تسمح بوجود كيانات سياسية أخرى مستقلة ومتساوية معها، وكانت علاقة روما مع الشعوب الأخرى قائمة على الحرب الدائمة، لذلك لم تكن فكرة المساواة بين الدول معترف بها لدى الرومان.

لقد ساهم الرومان في تطوير النظرية الدبلوماسية أكثر من مساهمتهم في ممارستها. وقد تميزت الممارسة والأسلوب الدبلوماسي بعدد من الخصائص نذكر منها:

أ- كان اهتمام الرومان يتركز على الشكل قبل المضمون في إجراءات عقد وتسجيل المعاهدات فمثلاً انصرف اهتمام الرومان الى النظر بصحة إعلان الحرب بالشروط المرسومة قبل بدئها وكذلك بما يتعلق بعقد الصلح طبقاً لمراسم معينة

ب-كان مجلس الشيوخ الروماني هو الذي يدير الخارجية ثم أصبح للأباطرة من تدبير هذه السياسة ولكن بعد استشارة هذا المجلس.

ت-كان مجلس الشيوخ يقوم بقبول سفراء الدول الأجنبية والاستماع الى مطالبهم وقبولها أو رفضها.

ث-في عصر الرومان أصبح تكوين البعثة الدبلوماسية بمثابة لجنة تمثل مجلس الشيوخ يتراوح عددها بين شخصين أو عشرة أشخاص وان السفراء عادة من درجة الشيوخ لو من الفرسان البارزين أو البعثات الدبلوماسية الهامة.

ج- عند عودة السفراء من مهمتهم يقدمون إلى مجلس الشيوخ تقريراً مفصلاً يصوت عليه المجلس بالموافقة أو الرفض.

ح- كانت تجري مراسم وإجراءات متعددة لاستقبال السفراء.

خ- عندما يقترف السفراء الأجانب عملاً مخالفاً للقانون يبعث بهم الى دولتهم لتقوم سلطاتهم بمحاكمتهم ومعاقبتهم.

د- كان الممثلون الدبلوماسيون لدى روما يتمتعون بالحصانة الشخصية حتى وقت الحرب

ثالثاً: الدبلوماسية في الحضارة الصينية القديمة:

أما الصينيون فاهتموا بالدبلوماسية عن طريق تبادل البعثات الدبلوماسية مع القوى المجاورة لهم والتزموا بقواعد معينة من أهمها ما يتعلق باستقبال المبعوثين الدبلوماسيين كما طلبت الصين من مبعوثيها الالتزام ببعض التعليمات المتعلقة بسلوكهم في الخارج والحصول على المعلومات بشكل سري.

رابعاً: الدبلوماسية في الحضارة الهندية القديمة:

جعل الهنود المهمة الأساسية الأولى للمبعوث الدبلوماسي هي جمع المعلومات عن الشعوب الأخرى، وعقد معاهدات التحالف لتعزيز القوة العسكرية.

خامساً: الدبلوماسية عند الفراعنة

عرفت حضارة مصر الفرعونية التمثيل الدبلوماسي في تلك الفترة حيث اكتشفت مجموعة من المراسلات في عهد " أخناتون "في الفترة من عام 3000 عام إلى 3500 قبل الميلاد. وما يؤكد وجود العلاقات الدبلوماسية المعاهدة التي أبرمت بين مصر والحيثيين سنة 1280 قبل الميلاد في عهد الملك " رمسيس الثاني".

سادساً: الدبلوماسية في الحضارة البابلية:

تميزت الدولة البابلية بتطبيقها للقواعد الدبلوماسية في تعاملها مع الدول الأجنبية، وخاصة ما تعلق بالاستقبال الدبلوماسي. وهي أول دولة عرفت النظام البريدي الذي يعتبر من القواعد الرئيسية في العلاقات الدبلوماسية بالإضافة إلى اعتمادها على العدالة أساساً لعلاقاتها الدولية.